قازان لأن الاستيلاء على بولوتسك لم يكن نصراً للمسيحية ، ومع ذلك فقد كان الحادث مناسبة لإقامة عدد من ولائم القصف والتسلية .

على أن اشد ما ارتكبه إيفان من أعمال القسوة غير المعقولة كان اعتقاله للأمير إيفان شيريميتييف أحد أبطال الحرب وصديق القيصر الذي وقف الى جانبه عام ١٥٥٣ والرجل التقي ذي الحياة الفاضلة . وقد ألقي به في زنزانة نتنة وأخضع للتعذيب بالرغم من أن أية تهمة محددة لم توجه اليه . ثم نفي بعد ذلك الى كيريلوف وصدر أمر بمصادرة أملاكه ولكنهم لم يجدوا شيئاً لأنه كان قد أعطى كل شيء للفقراء . ويدخل القيصر الوقح العديم الشعور زنزانة شيريميتييف المقيد بالسلاسل ، فهل فعل ذلك من أجل أن يرى الأمير أنه لا شيء وأنه هو القيصر كل شيء ؟. كل ما نعرفه عما دار بينهما من حديث يتلخص بالسؤال التالي : « اين خبأت أموالك ؟ » .

عام ١٥٦٣ كان عام وفيات . ففي أواخر نيسان ابريل توفي ڤاسيلي آخر أبنائه بعد خمسة أسابيع من ولادته . وفي السنة نفسها توفي المتروپوليت ماكاري فانكسرت بذلك حلقة اخرى من الحلقات التي كانت تربط إيڤان بالماضي . وكان ماكاري قد سعى منذ بعض الوقت لأن يبتعد عن البلاط حيث رأى أن الأمور صارت تسير في مسار سيء . وكان يفهم انه أصبح عجوزاً جداً بحيث لم يعد يستطيع أن يوجه التأنيب الى القيصر على خطاياه . كان ينبغي وجود متروپوليت أكثر شباباً ونشاطاً للوقوف في وجه مفاسد القيصر . وأراد الشيخ العجوز الانسحاب الى الصحراء ليعيش فيها سنواته الأخيرة في تقشف وزهد لولا انه كان ينصح دائماً بالانتظار حتى وافته المنية اخيراً وجعلته ينسحب من المسرح الذي لعب فيه دوراً ذا شأن . ولا شك في ان المتروپوليت في اثناء حياته لم يكن الرجل الذي يقدم النصيحة الحكيمة ولم يمارس على إيڤان نفوذاً سليماً جداً وملائماً ، وإنما كان قد أصبح منذ زمن طويل شيخاً وعاجزاً إلا عن الصلاة .